البعد التحرري لدى فكر الأمير عبد القادر:
الجمع بين الإرادة الشرعية و القيادة الثورية

د. محمد قنانش

جامعة سيدي بلعباس

من الواجب أن يتفاعل الإنسان مع الواقع المحيط به ، و ينسجم مع الظروف المتسارعة و المتباينة التي تتحكم في صيرورة الأحداث و تطورها. لقد شهدت الجزائر وضعا جديدا بعد انهيار الحكم العثماني و تعرضها للغزو الاستعماري الفرنسي سنة 1830 ، و إصرار القادة العسكريين على سياسة الإخضاع و التوسع السريع من أجل تحقيق المشروع الاستيطاني الأوربي على أرض الأمير عبد القادر الذي لم يتوان عما يشهده من اعتداء على سيادة الوطن و من انتهاك لكرامة الأمة من قبل الغزاة المحتلين ، فدفعته تلك المشاهد إلى تعبئة المجتمع و تجنيد كل شرائحه الاجتماعية للدفاع عن سيادة البلد وعزة الشعب . فكانت تلك الدوافع انطلاقة المقاومة الشعبية سنة 1832 بقيادة الأمير عبد القادر و لذا فإننا نتساءل : هل يمكن اعتبار المقاومة الشعبية لدى الأمير فكرا تحرريا أم مجرد ردة فعل على المحتل الفرنسي ؟ ما هي الأبعاد التحررية المنبثقة عن فكر الأمير عبد القادر ؟

أولا : مكانة المقاومة الشعبية لدى فكر الأمير

إن المسؤولية التاريخية التي حمل أوزارها و قدر أوزانها الأمير عبد القادر لما تزعم بنفسه المقاومة الوطنية المسلح ، كقائد لها ، تشكل هذه المهمة بالنسبة لنا التطبيق الفعلي و الترجمة العملية لعبقرية الفكر التحرري لدى الأمير في هذه الظرف العصيب الذي تمر به البلاد من خلال إشرافه الشخصي على مسيرة الكفاح الذي يخوضه الجزائريون خلال هذه المرحلة من تاريخ الوطن . مبايعة الأمير من قبل الرعية في 27 نوفمبر 1832 دلالة على أصول التزكية و تحديد المسؤولية في شخصية القائد

للمقاومة . و لذلك استمدت المقاومة الأميرية منزلتها التاريخية من جوهر الشرعية التي تعكس بحق مظاهر الثقة و الوفاء التي وضعتها الجماهير في شخصية الحاكم والتي ينتج عنها ما يعرف في العرف الديمقراطي الحديث بالحكم بالرضا . وفي هذا الشأن ، يرى ابن خلدون أن جوهر الشرعية هو قبول الأغلبية العظمى من المحكومين لحق الحاكم في أن يحكم . [1] و هذا الأمر وضع الأمير في رأينا مصدر قيادة للدولة الجزائرية الناشئة المتجددة ، و موطن زعامة للمقاومة المشتعلة . و ما يثبت الوزن الحقيقي للمقاومة الجزائرية في عهد ابن محي الدين ، أنها تحمل رسالة حضارية و إنسانية و وطنية للجزائريين لكونها رسالة تحرير و انعتاق من المستعمر الفرنسي .

على هذا الأساس شكلت المقاومة في مفهوم الأمير إحياء الدولة الجزائرية الوشيكة على الزوال بسبب تداعيات الانحطاط العثماني و العدوان الاستعماري ، و في نفس الوقت الدفاع عن سيادة الوطن و كرامة الإنسان الجزائري المسلم ، لانقاد البلاد من الغزو الغاشم و المحتل الفرنسي الظالم ، من أجل المحافظة على استمرارية الدولة الجزائرية . فالمسألة إذن في غاية الوضوح بالنسبة لفكر الأمير الذي كان يؤمن بأن صلاح الفرد هو صلاح عناصر المقاومة و صلاح رجال الدولة . فالأمير عبد القادر كان يعتبر نفسه خلفا صالحا لسلف صالح و خير خلف لخير سلف ، و ذلك وحده أكبر دليل على استمرارية الدولة ، و أن الأمير لأحد أطواد تلك الاستمرارية . [2]

إن ديناميكية المقاومة هي في حد ذاتها حركة المجتمع و طاقته المحركة ، بمعنى أن طبيعة العلاقة الجدلية السائدة بين الطرفين ، تعد في منظور الأمير عملية أخذ و عطاء ، و عنصر تأثير و تأثر . فقد حرص الأمير على التركيبة الاجتماعية و التي أولاها أهمية كبرى باعتبارها الوعاء الذي ينصهر فيه الفرد لكي يفهم و يستوعب صيرورة المجتمع بكل أشكاله و متغيراته . في هذا الصدد ، ركز الأمير على دور القبيلة التي تعد في نظره الخلية الأساسية للمقاومة و الدولة في آن واحد . من هنا بدأ يعتمد الأمير عبد القادر على وحدة القبيلة مستبعدا التصور العنصري التمايزي الإقصائي ، مركزا على مبدأ الاتجاه القائم على مفهوم النسيج الاجتماعي الهرمي ، بمعنى أن تكون وحدة القبيلة نواة مشكلة لوحدة

المجتمع ، و هذا التصور الاجتماعي يقرب فكر الأمير من مفهوم المواطنة في إطارها الجغرافي المحدود و المفهوم القومي للأمة بمعناها الواسع . فإذا كانت المبايعة قد حققت لدى الأمير مفهوم المواطنة ، فإن المقاومة ضمنت لديه الإطار العام لمعنى الأمة الجزائرية العربية الإسلامية . و هكذا خاض الأمير غمار الكفاح في أوائل عهد المقاومة على رأس جماعة من فرسان قبيلته والقبائل المجاورة لها ، فأصبح للأمير جيش قوامه 12 ألف فارس و كان يستمد قواته من هذه الجيوش الأولى ليؤلف منها العناصر التي ترافقه في حملاته العسكرية . [3]

لذلك فالمبايعة عززت معنى الشرعية والمقاومة وأنجزت وحدة المجتمع و حددت مصيره المشترك .فالمقاومة في نظر الأمير ، تعني تخليص البلد من الاحتلال و تحريرها من كل مظاهر التخلف و الانحطاط ، و لذلك كان الأمير في نفس الوقت قائدا للمقاومة و زعيما مؤسسا للدولة الجزائرية . و بمعنى آخر ، فإن الرجل ، حاول الجمع بين غايتين ، انتزاع السيادة الوطنية و السعي نحو أفاق التقدم أي تحقيق الحرية للوطن و في نفس الوقت وضع البلد على سكة التنمية . لقد كان الفكر السياسي لدى الأمير حسب اعتقادنا فكرا قوميا ، على أساس منطلقات تنظيم المقاومة و تأسيس الدولة الوطنية الحرة ، لأنه استند في جوهره على الشعور القومي التحرري الذي بدأ يتبلور و يتطور مع تواصل المقاومة

و توسعها الزمني و الجغرافي . و يظهر الشعور القومي في الغالب في المواقف الايجابية

و يكون قوة في التعبير و التماسك و الصمود تجاه التحديات ، أو قد يصل من القوة

و العنفوان إلى ما يدفع في تأكيد الذات و إلى التفكير في الاستقلال . [4] انطلق الفكر القومي لدى الأمير عبد القادر من مفهوم القبيلة كنواة عملية و خلية أساسية ، وظفها الأمير في توعية أطياف الرعية و توجيهم نحو مرامي المقاومة و مشروع الدولة . و لما بدأت المقاومة تتسع أفقيا و عموديا ، بدأت معها تتشكل وحدة المجتمع بانصهار و اندماج القبائل في سياق المقاومة و اقتناع الضمير القبلي بحتمية مجاهدة المحتل الكافر المغتصب للأرض و الناهب لموارد البلاد و المستغل لطاقات العباد .

الواضح في الأمر، أن المقاومة في حد ذاتها حركة سياسية تحررية تعبر عن الرأي الناضج و الموقف الثابت ، تمثل نماذج من سلوك و فكر الأمير عبد القادر بعزمه الشديد على إثبات الذات و إنقاذ الكيان الوطني و التمسك بوحدة الوطن و المجتمع ، لأن قوة المقاومة و استمراريتا لا تقوم إلا بقوائم الاتحاد و التماسك و وحدة الهدف . و يتضح الهدف بالنسبة للأمير، أن المقاومة هي أساس قيام الدولة كشرط ضروري ، على اعتبار أن الدولة فاقدة للسيادة لا معنى لها ، بل لا وجود لها أصلا ، و الاستعمار أراد في تصور الأمير محو كيان الدولة الجزائرية بالقضاء على سيادتها . و على هذا الأساس ، فالدولة الحديثة حسب الظروف المحيطة بعهد الأمير، تستمد وجودها من صميم المقاومة و من بعدها التحرري ، و هنا تكمن غاية المقاومة لدى فكر الأمير.

ثانيا : البعد السياسي لدى فكر الأمير عبد القادر

استطاع الأمير عبد القادر أن يؤسس الدولة الجزائرية كوحدة سياسية بديلة للإيالة الجزائرية المتلاشية من ناحية ، و عزمه الشديد على إحياء الدولة الوطنية من ناحية أخرى . فمشروع تأسيس الكيان الوطني المستقل ، هو في حد ذاته يعبر في تقديرنا عن عبقرية الأمير السياسية ، و تجلى هذا الاهتمام في تكوينه الديني و ثقافته المؤسساتية . اكتسب الأمير الشرعية السياسية و الدينية عن طريق المبايعة التي خولته أن يكون المسؤول الأول عن إقامة الدولة الجزائرية المستقلة ، و هذا أن عبر عن شيء ، فإنما يعبر عن قدر كبير من الوعي السياسي و الحس المدني لدى الأمير في توثيق الصلة بين الحاكم و المحكوم ، وإضفاء على نظام حكمه صبغة المصداقية و الثقة المتبادلة بين الراعي و الرعية .

لقد كانت البيعة شرعية ، حيث سماه والده بناصر الدين ، فوقعت البيعة الخاصة في 27 نوفمبر 1832 من أهل معسكر ، و تلت البيعة العامة في 4 فيفري سنة 1833 .[5]

و على هذا الأساس ، شكل معيار المبايعة انطلاقة فعلية لقيام الدولة على أصول قويمة و أسس سليمة ، بينت آلية المبايعة بالنسبة لفكر الأمير ما يسمى في رأينا بنظرية

الحكم بالرضا ، و التي بموجبها ، و ضع الأمير مشروع الدولة على سكة التنفيذ . تعتبر مبايعة الأمير بداية لحكومة جزائرية صالحة ، فقد تحلى هذا الأمير بمزايا خلقية و عقلية عظيمة فضلا عن أنه كان من صميم الشعب الجزائري .[6]

إذا كانت المقاومة مصدر سيادة الدولة ، فإن البيعة هي شرعيتها و ربطتها العضوية بين الأمير و إمارته . انصب فكر الأمير على مطلب أساسي ، تمثل في المحافظة على الكيان المادي للدولة ، أي ما يعرف بالإقليم أو الأرض ، و من أجل ذلك فجر المقاومة على المستعمر الفرنسي ، لأن الإقليم لا يتجزأ من مكوّنات الدولة الحديثة . فانقاد الإقليم من قبضة الاحتلال في نظر الأمير عبد القادر يعني ضمان مسيرة الكيان الوطني . و في هذا الشأن ، فبدون إقليم ثابت لا يمكن أن تقوم الدولة ، فالدولة الحديثة تتطلب بقعة معينة من إقليم الأرض تستطيع أن تمارس عليها سلطتها التي لا ينازعها أحد فيها .[7] لقد ترجم الأمير عبد القادر فكره السياسي في الميدان ، فكان فكرا عمليا براغماتيا بحيث تمكن من وضع أسس الدولة و توجيه الأمة لمقاومة العدوان الفرنسي الاستعماري دفاعا عن سيادة الوطن و كرامة الرعية . من هذا المنطلق ، يمكن لنا القول بأن الأمير كان ذا رأي صائب و صاحب فكر إصلاحي ثاقب ، لما بدأ في إصلاح أمور الدولة الجزائرية التي كانت مهدّدة بالزوال بفعل تداعيات انهيار النظام العثماني من جهة و مخاطر الغزو الفرنسي من جهة أخرى . امتدت تجليات فكره السياسي إلى برنامجه الإصلاحي الذي شمل أصلا جميع المجالات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية و العسكرية . امتدت إصلاحاته الواسعة إلى تنظيم القضاء فكان هناك منصب قاضي القضاة الذي يشرف على إدارة القضاء في البلاد يتم اختياره من العارفين بالشريعة و تتوفر فيه المعرفة و العدالة .[8]

اهتم الأمير عبد القادر اهتماما كبيرا بالثقافة و شجع طلاب العلم و العلماء وعمل على جمع الكتب في كل مكان ، و أنشأ مجلسا للشورى يختار بطريق الانتخاب يعاونه في حكم البلاد و النظر في المظالم . فضلا عن ذلك قسّم الأمير جغرافية البلاد إلى وحدات إدارية ، يرمي من خلالها إلى تنظيم أمور الدولة و تسهيل نشاط أجهزتها ، و محاولة

خلق توازن جهوي بين أقاليم البلد . أصبحت مدينة معسكر مقر السلطة المركزية ، و قسم الإقليم إلى مقاطعات كان عددها في البداية مقاطعتين تلمسان على رأسها محمد البوحميدي الولهاصي الذي خلفه بعد وفاته الحاج مصطفى بن أحمد التهامي ، و مقاطعة الشلف عاصمتها مليانة ، معينا عليها محي الدين الصغير ، و عند وفاته ولى عليها قريبه محمد بن علال القليعي . [9] و أصبح عدد الولايات 9 مقاطعات من تلمسان إلى المدية و من واد سوف إلى الزيبان ، و من جيجل إلى سطيف ، و بذلك وحد الأمير الأقاليم إداريا منجزا رقعة جغرافية متماسكة مسخرة في دم المقاومة و توطيد أركان الدولة . على هذا الأساس ، بدأت عبقرية الفكر السياسي عند الأمير عبد القادر تتجلى في أعماله و منجزاته ، حيث أنه استطاع أن يحول بذكائه و دهائه العصبية القبلية إلى إرادة وطنية مفعمة بالروح الثورية التي تحتاجها إليها الجزائر المكافحة في هذه الظروف العصيبة التي يمرّ بها الوطن العزيز.

إن قيام الدولة و تثبيت السلطة و انتشار الأمن ، أزال العصبية و التماسك القبلي ، زاد ذلك في استقرار عشائر متعددة في مكان واحد مما نمى لديهم إرادة الاشتراك في أعمال واحدة هي القتال من أجل الدولة . [10] فقد أدرك الأمير أهمية التنظيم المؤسساتي بالنسبة لمفهوم الدولة الحديثة ، بحيث أنه تمكن من ربط هوية الكيان السياسي الوطني بعامل السيادة كعنصر أساسي ، لأن معيار الهوية في نظر الأمير عبد القادر يعبر بكل وضوح عن الوجود المعنوي و التاريخي للدولة ، و عنصر السيادة يضمن لها فضاءها السياسي و الجغرافي على الصعيد ين المحلي و الدولي . فقد استطاع الأمير عبد القادر إلى حد كبير المحافظة على هذا الفضاء الجغرافي الذي ضمن للجزائر سيادتها كما أثبتت ذلك معاهدة تافنة . اعترفت فرنسا لعبد القادر بالسيادة على ثلثي الجزائر ، حيث كان تهدف المعاهدة إقامة تعايش بين الطرفين . [11] و هكذا كان تصور الأمير ينطلق من تفكير سياسي سليم أخذ بعين الاعتبار انقاد السيادة الترابية من التوسع الاستعماري في انتظار استغلال الظروف المناسبة لاسترداد بقية المناطق المحتلة ممّا يؤدي إلى القول بأن الفكر السياسي للأمير عبد القادر في معاهدة تافنة ، كان فكرا مبنيا في تقديرنا على مبدأ "

خذ و طالب " أي النظرة المستندة على مبدأ التدرج و المرحلية أي السياسة المعروفة " بسياسة الخطوة الخطوة " في التعامل مع الخصم الكولونيالي . فالبرنامج السياسي الذي حظيت به المقاومة ، انبثق من صميم إرادة الجماهير الجزائرية ، لأنه عبر عن طموحاتهم السياسية و بالتالي فإن الأمير تمكن من إعطاء لبرنامجه المحددات الحضارية التي أراد الغزو الفرنسي طمسها .

و في هذا الإطار صرح خليفته ابن سالم لدى استسلامه في شهر فبراير سنة 1847 بقوله : " لقد حاربنا إلى يومنا هذا للدفاع عن حريتنا و ديننا . " [12] يعكس هذا التصريح مدى الوعي السياسي و النضج الحضاري الذي تحمله رسالة المقاومة من ناحية ، و قناعة قادتها الغيورين و المتشبعين بالقيم التحررية و الثوابت الوطنية . إن السلوك الوطني لرجال المقاومة ، سيكون إحدى الروافد الشعبية للحركة الوطنية في مداها المتوسط و الذي ستترجم آفاقه الثورات اللاحقة ، وفي مداه البعيد و الذي ستجسده الثورة التحريرية .

ثالثا : البعد العسكري لدى فكر الأمير عبد القادر

إلى جانب نظرته السياسية و التحريرية فيما يخص إحياء الدولة الجزائرية المعاصرة بمؤسسات حديثة ، سعي الأمير أيضا إلى تحصين الكيان الوطني الناشئ بتكوين منظومة عسكرية قوية و حديثة ترجم من خلالها عبقريته العسكرية في زمن الحرب و السلم . كان جيش الأمير حتى سنة 1834 لا يتعدى 12 ألف فارسا ، و بدأ يحصن عاصمته معسكر بإقامة ثكنة عسكرية لفيلق قوي يتكون من كتائب بلباسهم و طعامهم . و كانت قواته ترافقه في الحملات العسكرية و في الحروب ضد المحتل حيث وصل تعداد قواته سنة 1838 إلى 2230 رجلا ، منهم 2000 من المشاة و 200 فارسا و 30 مدفعا

و خص الأمير 600 بعيرا و 200 بغلا لنقل أمتعة و مؤونة الجيش . [13] و كان المقاتلون من المتطوعين القادمين من مختلف القبائل ، يأتون من عامة الناس و من أشرافهم

و من الفقراء و الأغنياء و من الفلاحين عند ما تشتد حاجة المقاومة إلى الدعم البشري خلال الحرب . لقد كان المتطوع يأتي إلى التجنيد طواعية مقتنعا بالحياة العسكرية و يحول على الفور إلى أقرب الكتائب إليه . [14]

وضع الأمير عبد القادر إستراتيجية عسكرية تستجيب لمتطلبات الوضع ، و تأخذ بعين الاعتبار موازين القوى بين الجيش الفرنسي الذي احتل المناطق الساحلية القوي بعدته و عدده و أسلحته و الجيش الجزائري المنتشر عبر باقي أنحاء التراب الوطني . تمكن الأمير من قطع الطريق أمام الجيش الفرنسي الذي قرر التوغل نحو الداخل ، فألحق بقوات العدو خسائر في واد المقطع سنة 1834 و حوض تافنة 1836 ، حيث استمر جيش عبد القادر يقاوم بشجاعة لمدة طويلة إلى غاية سنة 1847 .

بفضل إستراتيجيته العسكرية ، يكون الأمير قد أخر التوسع الفرنسي و الاستعمار الفرنسي لمدة 17 سنة بسبب الكفاح التحرري الذي خاضه الجزائريون تحت لواء مقاومة الأمير عبد القادر . و لذلك وصف الأمير بالقائد المحنك ، تجلت عبقريته في التنظيمات المختلفة ، فهناك التنظيمات في الجيش التي قسمت إلى مشاة و خيالة و مدفعية ، كما عينت رتب الجند و لباسهم ، و حدّدت رواتبهم و مسؤولياتهم و واجباتهم ، و بعبارة موجزة يمكننا القول أنه وضع أساسا متينا لجيش وطني نظامي .[15] و استعمل في معاركه ضد العدو أسلوب حرب العصابات ، القائمة على الحملات و الهجومات المتقطعة لمباغتة قوات الجيش الفرنسي و تشتيت وحداته و استنزاف طاقاته ، و أعطت هذه الخطة كامل ثمارها في معركة سيدي يعقوب يوم 24 أبريل 1836 في حوض واد تافنة الغربي على بعد 60 كيلومتر عن مدينة تلمسان ، حيث هنالك حوصرت قوات دارلانج و منيت بالهزيمة . و في هذا الشأن يقول شارل أندري حوليان : " أراد بيجو الثأر و الانتقام من هزيمة واد تافنة (معركة سيدي يعقوب) لأن الأمير أصبح بطل الأمة العربية ." [16]

و هكذا ، تمكن الأمير من أن يؤسس قوة عسكرية يستغلها في توحيد القطر الجزائري تحت سيادته وفي نفس الوقت التصدّي للتوسع الفرنسي ومنعه من التوغل نحو المناطق التلية الداخلية .

و على هذا الأساس ، وفق الأمير في تقديرنا إلى حد كبير عندما كسب للجزائر معظم المعارك التي خاضها ضد الغزاة الفرنسيين على مدى العشرية الأولى من عمر المقاومة . أجبرت السلطة الاستعمارية إبان هذه المرحلة على رفع مقدّراتها العسكرية ، محاولة إفشال المقاومة الوطنية و كسب رهان التوسع باتجاه الأقاليم الداخلية . و ترتب عن الوضع القائم زيادة الحكومة الفرنسية عدد جنودها في الجزائر ، حيث ارتفع عدد القوات الفرنسية من 42 ألف سنة 1837 ليصبح في حدود 48 ألف رجل سنة 1838 . [17] أثار التخطيط العسكري الذي انتهجه جيش الأمير والمبني على الحملات المتقطعة و القائمة على أسلوب الهجمات المباغتة ، أثار اهتمام القادة العسكريين الذي قرروا تحصين مواقعهم واللجوء إلى الأطراف المناوئة سواء تعلق الأمر بمجموعة الكراغلة أو بعض فلول القبائل المستعصية .

رابعا : البعد الإستراتيجي لدى الأمير عبد القادر

استطاع الأمير عبد القادر أن يجمع بين خصلتين نادرتين عند خاصة الناس ، بين المسؤول السياسي القائد والمخطّط العسكري المحنك . لقد أثبتت مواقفه السياسية وحملاته العسكرية تلك المساعي البطولية التي سارت عليها الدولة الأميرية و المقاومة الشعبية الجزائرية . إن المعارك التي قادها جيش الأمير حالت دون تقدم القوات الفرنسية نحو الداخل ، و أصيب جيش العدو بعدة انتكاسات عرقلت سير القوات الغازية من جهة و منعه من التوغل نحو المدن الداخلية . و قد برز هذا التفوق العسكري في المعارك الفاصلة التي حقق فيها جيش الأمير انتصارات و توازنات ذهل بها ساسة فرنسا و قادتها العسكريين . فالمعارك التي انتصرت فيها قوات الأمير على الجنرال دي ميشال سنة 1833 و على الجنرال تريزيل سنة 1834 و 1835 في واد الأطشم و واد السكاك و معركة سيدي يعقوب سنة 1836 بإقليم واد تافنة بمنطقة تلمسان و المقطع بمستغانم و غيرها من المعارك ، كانت بالفعل إستراتيجية عسكرية للمقاتلين الجزائريين امتزجت فيها روح الصمود و التحدي بإرادة التضحية و الانتصار. توجت تلك المعارك بعقد معاهدة دي ميشال في 28 فيفري 1834 و معاهدة تافنة في 30 ماي 1837 . حاولنا التركيز على

المعاهدين كنموذج فعلي للدلالة على الإستراتيجية الفاعلة و الناضجة لدى الأمير عبد القادر. استطاع الأمير في معاهدة 1834 أن ينقد الدولة الجزائرية من التوسع الفرنسي و يرسم رقعة الدولة الجزائرية .

تعتبر معاهدة دي ميشال أول انتصار ديبلوماسي للأمير ، إذ اعترفت به فرنسا كأمير للمؤمنين و هو تعبير لا يستعمله إلا الخلفاء ذوي السلطة الروحية و السياسية .[18] كما أعطت هذه المعاهدة بعدا سياسيا و دوليا لمفهوم السيادة الجزائرية . إن هذه المعاهدة نصت على سيادة الأمير و مكانته الدولية و أعطته وقتا لتنظيم إمارته داخليا و قوة للقضاء على منافسيه المتمرّدين .[19]

إن انعدام التكافؤ العسكري بين القوتين ، لم يكن ذلك عائقا منيعا جال دون تفوق الأمير على الجيش الاستعماري . وصل الجيش الفرنسي في مرحلة ما إلى 108 ألف محارب

و جيش الأمير 15 ألف مقاتل و بالرغم من ذلك التفوق العددي ، استطاع الجيش الجزائري من إلحاق الضر بالجيش الاستعماري في عدة مواقع .[20] و تأتي معاهدة تافنة في 30 ماي 1837 لتؤكد انتصار الديبلوماسية الجزائرية للأمير عبد القادر أمام الماريشال بيجو . فقد نصت المعاهدة على 15 بندا ، تمكن الأمير من الحفاظ على الكيان الجغرافي لدولته و تقوية أسسها . و ما يعكس فعلا القدرة الديبلوماسية للأمير في هذه المعاهدة كونه حقق للجزائر مكاسب في غاية الأهمية ، أبرزها تنظيم علاقاته مع العدو ، و حصر مواقع الاحتلال في نقاط محددة على الشواطئ ، و بالتالي فقد ضمن الأمير للبلد فترة من السلام و الهدوء الذي كان في أشد الحاجة إليه لتدعيم استقلاله السياسي ة الاقتصادي و لحماية هذا الاستقلال بتنظيم جيش مجهز و مدرب على طرق القتال الحديثة .[21] لقد تحامل أحمد باي على الأمير بعد توقيعه على المعاهدتين ديميشال و تافنة واصفا بالانفرادية و النظرة الضيقة . فقد اتهم أحمد باي الأمير بأنه تركه وحده لتتفرغ له فرنسا بينما الأمير كان يرى ذلك ضروريا لتجديد القوى و الاستعداد من جديد لاستئناف الكفاح .[22] و مهما يكن من أمر ، نستطيع القول بان تلك المعاهدات ، و بخاصة معاهدة

تافنة ، كانت بالفعل حسب اعتقادنا قمة الدهاء السياسي للأمير عبد القادر بحيث سبق عصره ، فهي لا تختلف في تقديرنا عن معاهدة التحالف السوفياتي الجرماني الموقعة بين مولوتوف و ريبنتروب .

في صائفة 23 أوت 1939 ، بحيث كان الطرفان الألماني و السوفيتي يبحثان عن السلم و استرجاع القوة استعدادا للحرب ، و هو نفس التوجه لدى الأمير ، فكان مآل المعاهدين النقض الأكيد لبيجو في تافنة و هدر لمعاهدة التحالف الثنائي . و لذلك عرف الأمير بالمهارة الديبلوماسية و الذكاء و سعة الاطلاع على أحوال العصر و تثبت معاهدتا دي ميشال و تافنة اللتين وقعهما مع فرنسا حقا براعته و حنكته .[23] ولكن النظرة الإستراتيجية لدى الأمير لم تكن وليدة ظروف الاستعمار و حملاته العدوانية ، بل أنها مستمدة من طبيعة تكوينه ، و راجحة عقله ، و رسوخ علمه و ثبات مواقفه و صلابة إرادته و قوة شخصيه . لقد كانت المقاومة الجزائرية من أعظم الصراعات الدامية ضد الاحتلال من أجل الاستقلال و كان رمز هذه المقاومة هو الأمير عبد القادر.[24] و مما لا شك فيه ، أن الأمير كان ببعده السياسي و العسكري و الاستراتيجي المدرسة الوطنية السباقة التي غرست بدور التيار الوطني التحرري على الإطلاق . فهو الذي أخرج النظرية التي نادى بها حمدان عثمان خوجة إلى ميدان التطبيق ، فأعطى للوطنية مفهومها الصحيح القائم على محاربة العدو الأجنبي ، و بفضله تدعم التفكير الوطني الجزائري كما تدعم الفكر القومي العربي .[25]

زاد اهتمام الأمير بالجانب الإستراتيجي العسكري لما رأى التفاوت في موازين القوى بين الطرفين ، فقرر إقامة صناعة إستراتيجية لإنتاج الذخيرة الحربية حيث تحول منجم غار البارود على ارتفاع 390 متر عن سطح البحر مركزا لصناعة البارود ، فأنشأ مصهرة و مطحنة للبارود و الموجود مكانه حاليا ببلدية بني صاف . استعان الأمير بخبراء أوربيين من جنسيات فرنسية و إسبانية ، و بالخصوص الكفاءات الفارة من الحكم الملكي المطلق في اسبانيا و بعض الإطارات العسكرية الهاربة من الجيش الفرنسي[26] و لقد

كان التنظيم الاستراتيجي للسلطنة يقوم أساسا على المهمة التي رسمها الأمير عبد القادر لنفسه و المتمثلة في طرد الفرنسيين من الجزائر . [27]

إن إستراتيجية الأمير عبد القادر السياسية منها والعسكرية ، وضعته فكرا متميزا أثار إعجاب الصديق و العدو ، حيث اعترف له الكثير من قادة عصره بمواقفه الثابتة الملهمة للسلم و التعاون و التسامح . و في هذا السياق اعترف الضابط البريطاني الكولونيل اسكوت بخصال الأمير مشيدا بقوله : " و بقدر ما تسمح به قوانين بلادي ، فإن خدماتي ستكون تحت تصرّف الأمير عبد القادر ، ولكنني مع ذلك لم أجرد حتى الآن سيفي من غمده للقتال من أجل قضيته ، و أنا لا أنوي أن أصنع ذلك إلا إذا بلغ دمي درجة الغليان ، و عندئذ سأقاتل من أجل الأمير حتى و لو كان ذلك ضد قوانين بلدي . [28]

و على أي حال فإن فكر الأمير نابع من عبقريته الإنسانية و الروحية و المعرفية ، أهلته أن يكون من أبرز قادة الجزائر في تاريخها الحديث . فالصفات البارزة لدى شخصية الأمير هي قوة إيمانه و صدق يقينه إنه فارس الصفاء و اليقين ، استطاع بفكره أن يفهم جوهر الحياة الهنيئة الهادئة . [29] و تتجلى عبقرية الأمير عبد القادر في اعتماده على العقل الذي يراه أساس كل صرح و مفتاح كل صلح و يقين كل صفح ، و كأن فكره يجمع بين عقلانية إيمانويل كانط و منطق روني ديكارت من جهة و بين فلسفة ابن رشد و حكم سقراط من جهة أخرى ، بمعنى أن عقلانية الأمير أساسها التشبث بالحق و التفتح على الخير مع نكران التعصب و الحقد ، و لا يتحقق هذا البعد الأخلاقي بالنسبة للأمير إلا بالتمسك بالعقل الذي هو وحده الآمر و المقرّر و المحاسب بعد صدور الأفعال و اقتفاء الآثار. و في هذا الاتجاه يقول الأمير عبد القادر: " إن خاصية الإنسان التي امتاز بها هو العقل الذي به يدرك العلوم و يعرف طريق الحق . " [30] من هذا المنطلق ، يمكن اعتبار القدرة السياسية و الكفاءة العلمية و الرؤية الإستراتيجية ، صنعت من الأمير عبد القادر القائد العقلاني ، ذي الرأي الثاقب و الوعي الناضج مما أهله أن يكون بدون شك زعيما للمقاومة و رجلا مؤسسا للدولة الجزائرية الحديثة .

و لذلك كان الأمير يمجد سلطة العقل و يؤكد على دور البصيرة في تحديد و توجيه سلوك الفرد ، إذ يقول : " العقل منبع العلم ، و العلم يجري من العقل مجرى الثمر من الشجرة و النور من الشمس و الرؤية من العين . [31] أن عبقرية الأمير عبد القادر لا يضاهيها أحد ، لقد كان رجل عصره بل رجل فكره الذي أحسن استثماره في إشعال فتيل المقاومة و الإشراف على تنظيمها و قيادتها . كما استطاع في نفس الوقت إحياء الدولة الجزائرية على أسس سليمة و حديثة . لقد كانت جهود الأمير نسجا من نسوج المخيال المبدع و المعيار المنتج ، اخترق عصره ، ناقلا وضعية المجتمع الجزائري من سكة الاحتلال و الاستسلام إلى مشارف و مراتب المقاومة و التحرر ، فتحول الأمير إلى مفجر و مجدد في أن واحد لنشاط الحركة الوطنية الجزائرية مطلع القرن التاسع عشر .

لقد تمكن الأمير عبد القادر بقدرته الفكرية و ثقافته الصوفية و إرادته الروحية ، أن يؤسس للدولة الجزائرية الحديثة ، منطلقاتها التحررية بأبعادها الإستراتيجية ، على أساس أن الحق في التحرّر و الانعتاق ، حق يفدى و لا يهدى ، و أن الحرية ترعاها الجماعة لا الفرد وحده ، فهي قضية المجتمع تتطلب الرؤية السديدة و القيادة الرشيدة ، التي تجمع بين الإرادة الشرعية و العزيمة الثورية .

الهوامـــش :

[1] إبراهيم، سعد الدين ، " مصادر الشرعية في أنظمة الحكم العربية " ، عن مجلة المستقبل العربي ، العدد 62 ، أفريل 1984 ، ص ص 93 . 118

[2] مولود قاسم ،نابت بلقاسم ، " استمرارية الدولة الجزائرية في نظر الأمير عبد القادر" ، عن مجلة الثقافة ، عدد خاص الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر ، ماي ، جوان 1983 ص ص 9 . 50

[3] قداش ،محفوظ ، " جيش الأمير ، تنظيمه و أهميته " ، المرجع السابق ، ص ص 51 . 74

[4] صالح أحمد ،العلي ، " الشعور القومي العربي عبر التاريخ ، مقومات القومية العربية و مظاهرها في التاريخ " ، عن مجلة المستقبل العربي ، العدد 81 ، نوفمبر 1985 ، ص ص 85 . 111

[5] قدّورة، زاهية ، تاريخ العرب الحديث ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1975 ، 498

[6] نفس المرجع ، ص 498

[7] محمد عبد المعز نصر ، في النظريات و النظم السياسية ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت ، لبنان 1981 ، ص 23

[8] قدورة زاهية ، المرجع السابق ، ص 499

[9] إسماعيل، العربي ، " حكومة الأمير عبد القادر ، إدارتها و مهامها " عن مجلة الثقافة ، المرجع السابق ، ص ص 219 . 227

[10] صالح أحمد، العلي ، المرجع السابق ، ص 102

[11] مصطفى ،الأشرف ، الجزائر الأمة و المجتمع ، ترجمة حنفي بن عيسى ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1983 ، ص 135

[12] قداش محفوظ ، المرجع السابق ، ص 51 (أنظر الوثائق المحفوظة في محافظة الأرشيف بفانسان Vincennes العلبة رقم 235 / 16)

[13] نفس المرجع ، ص 52

[14] قدورة زاهية ، المرجع السابق ، ص 499

[15] CHARLES ANDRE JULIEN , HISTOIRE DE L'ALGERIE CONTEMPORAINE , T 1 , LA CONQUETE ET LES **DEBUTS** **FRANCE** 1986 , **DE LA COLONISATION 1827 – 1871 , P.U.F. , 2eme ED. p. 179**

[16] جلال، يحي ، العالم العربي الحديث ، دار المعارف ، مصر ، 1967 ، ص 154

[17] حرب، أديب ، التاريخ العسكري و الإداري للأمير عبد القادر الجزائري ، ط (2) ، دار الرائد للكتاب الجزائر 2004 ، ص 127

[18] نفس المرجع ، ص 127

[19] مصطفى ، الأشرف ، الجزائر الأمة و المجتمع ، ترجمة حنفي بن عيسى ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1983 ، ص ص 116 . 117

[20] إسماعيل، العربي ، العلاقات الديبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1982 ، ص 139

[21] مولود قاسم، نابت بلقاسم ، المرجع السابق ، ص 16

[22] أبو القاسم سعد الله ، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ، الجزء الثاني ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986 ، ص 101

[23] أبو القاسم ،سعد الله ، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ، الجزء الأول ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر ، 1981 ، 130

[24] نفس المرجع ، ص 130

(25) رشيد، بورويبة ، " القلاع و الحصون و المؤسسات التي أنشأها الأمير عبد القادر" ، عن مجلة الثقافة ، المرجع السابق ، ص ص 87 . 101

(26) نفس المرجع ، ص 87

(27) شارل روبير، أجيرون ، تاريخ الجزائر المعاصرة ، ترجمة عيسى عصفور ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ، 1986 ، ص 28

(28) الكولونيل، أسكوت ، مذكرات الكولونيل اسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر سنة 1841 ، ترجمة و تعليق إسماعيل العربي ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1981 ، ص 16

(29) MOHAMMED CHERIF SAHLI , ABDELKADER LE CHEVALIER DE LA FOI , IMPRIMERIE MORIAME PARIS , 1967 , p 54

(30) الأمير عبد القادر ، المقراض الحاد لقطع لسان منتقض دين الإسلام بالباطل و الإلحاد ، مطبعة التاسيلي للنشر و التوزيع ، 'الجزائر ، 1989 ، ص 9 (أنظر مجلة عصور الجديدة ، العدد الأول ، 2011 ، ص 214

(31) الأمير عبد القادر ، ذكرى العاقل و تنبيه الغافل ، تقديم عشراتي سليمان ، دار الغرب للنشر و التوزيع ، وهران 2004 ، ص ص 24 (أنظر مجلة عصور الجديدة ، العدد الأول ، 2011)